

الأدب والعيون

الدكتور السيد خليل باستان*

المستخلص

الكلامُ يدورُ حول العيون من وجهة نظر القرآن الكريم والادباء الماضين منهم والحاضرين، والذين بلغ عددهم في هذه المقالة أكثر من خمسة وأربعين شاعراً، وما ترشح منهم من معاني الجمال لاوصاف العيون العظيمة، على لسان الظرفاء من الادباء، من سعة العيون، و سوادها وبياضها، وسهامها ونبالها وسيوفها و... التي قدمتها الشعراء في هذا المضممار والتي بلغت المثات، فجئنا بشواهد مختلفة حيث بلغ أكثر من مئة وخمسين بيتاً من الفنون الشعرية مع ذكر أصحابها، ثم أشرنا الى الفنون المختلفة التي صدرت عن أفواه الشعراء، والنظرة الايجابية والسلبية للعيون.

الكلمات الرئيسية: القرآن الكريم، العيون، صفاتها، الأدباء، الشعر العربي.

المقدمة

حاولنا في هذه الدراسة العاجلة أن نقف قليلاً على موقف الفن الادبي و الادباء من العيون، لأن الادب فيما مضى وفيما بقي، لا محالة خائض في وصف سحر العيون، وذاكر جمالها وخصائصها و... الكلام هنا طويل عريض، يستحق دراسة دقيقة على مستوى اطروحة دكتوراه. وعلى أي حال قيل مالا يُدرک کله لا يُترک کله، وعلى هذا الاساس قمنا بالوقوف على الكتاب العزيز ورؤيته للعيون، وما يحتوي على بيان للجمال و تحبيب أهل الايمان الى ذلك.

ومن ثم وقفنا على آراء أصحاب الذوق والفن الادبي، من شعراء وخطباء... حتى ندرك الجمال بادق معانيه، وصدق أوصافه و...، فجئنا بامثلة كثيرة من الايات الشعرية المختلفة التي اعتنت بالعين ومحاسنها وابرز جمالها الحقيقي، وما ترك من أثر في النفوس، وماقدمته الشعراء من قتلى للعيون، وما جرى عليهم من الويلات والثبور، ومالاقوه من الحسرات والهموم، وما أصابهم من مصائب و صعاب و

* استاذ مشارك كلية الادب الفارسي واللغات الاجنبية، جامعة العلامة الطباطبائي Seyedkhalil@hotmail.com

تاريخ الوصول: ٨٩/٨/٣، تاريخ القبول: ٨٩/٨/٣٠

... والذى بذلوه فى حقّ العيون لا يساوى شيئاً، لأنّ الحور أعلى ثمناً وأنفس مالا وثروة، ومهورهن فى اليوم الموعود أكثر بكثير، مما يتصوّره احداً ألا وهو الايمان بالله العظيم والاقبال على العمل الصالح.

أ: القرآن الكريم والعيون

للعين معانٍ مختلفة من حيث الاستعمال، وقد ذكر لها الدامغانى فى قاموسه وجوهاً خمسة {الاول: بمعنى النهر كما فى قوله تعالى: فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا (البقرة/٦٠)، الثانى: شراب أهل الجنة كما فى قوله تعالى: عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (الانسان/٦). الثالث: الحفظ والكلاءة كما فى قوله تعالى: وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (طه/٣٩)، أى بكلاءتى وحفظى. الرابع: النظر كما فى قوله تعالى: أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا (هود/٣٧) أى بمنظر منّا. الخامس: الباصرة كما فى قوله تعالى: أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (البلد/٨). (الدامغانى، الحسين بن محمد، ١٩٧٠م: ٣٣٨ بتصرف). إن المعنى الخامس يخصنا فى هذا البحث، فلما أراد الله سبحانه أن يصف نساء أهل الجنة لأصحاب الايمان والعمل الصالح وأهل التقوى قال: كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (الدخان/٥٤)، فالحور جمع حوراء بمعنى المرأة الشابة الحسنة الجميلة البيضاء، شديدة سواد العين، او الشديدة بياض العين الشديدة سوادها، والعيون مفردتها العيناء، وهى العظيمة العينين، فالوصف يركز على العيون دون سائر الاعضاء، لما فيها من جمال يستقطب الالباب. ونراه سبحانه وتعالى تارة اخرى يصفهن بقوله: وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (الصفات/٤٨)، و القاصرات جمع قاصرة، وهن اللاتي يقصرن أطرافهن على أزواجهن لحيهن اياهم، لا ينظرن الى سواهم، فالتركيز هنا جاء على العين أيضاً، حيث الواسعات العيون، النجل العيون، أو الشديديات بياض العين والشديديات سوادها، وعلى هذا الاساس بنى أبو العتاهية قوله التالى:

غَرَّ الوجوه مجرباتٌ قاصرات الطرف حورٌ

(شيخو، ١٩٩٨، ج ٣: ٢٩)

فهذا التركيز يُعدّ عاملاً أساسياً للتشويق والترعيب والتحييب الى الجنان التى عرضها السموات والارض وفيها الحور المقصورات فى الخيام.

وقالت العرب أجمل ما فى الانسان وجهه، وأجمل ما فى الوجه العين، فمقياس الجمال هو العين النجلاء لاغير، وهذا الامر جعل الشعراء يخوضون معارك قاسية ويقدمون الضحايا ويدرّفون الدموع اللآلى فى سبيل الحبّ وسحر العيون، كما سنجد ذلك بعد قليل. ولكن القرآن العظيم فى الوقت نفسه تبه على عظم خطر النظرات السقيمة لبعض النفوس المريضة قائلاً: قُلْ

لِلْمُؤْمِنِينَ يُعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣١﴾ وَقُلْ
لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ... (النور/٣٠-٣١)، حيث تعد هذه النظرات من سهام ابليس (لعنة
الله عليه)، وكذلك السنة الشريفة حرمت النظرة الثانية كما جاء في الخبر: ان النظرة الاولى لك
والثانية عليك، واعلم ان الله سبحانه وتعالى: يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (غافر/١٩)،
وهو القادر على طمس العيون والقضاء عليها اذا تجاوزت حدودها، وأن العين مسؤولة أمام رب
العالمين حيث يقول: إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (الإسراء/٣٦).
الجميل يُدرك الجمال:

العين أداة للبصر، ملك الاعضاء، وأرقى الحواس عند البشر، حيث تصل الى مطلوبها حيث لا
تصل الحواس الأخرى اليها، كما يقول الشريف الرضي:

سهمٌ أصاب وراميه بذى سلم من بالعراق، لقد أبعدت مرماك
(الشريف الرضي، ١٤٠٦هـ.ق، ج ٢: ١٠٧)
والمقصود من ذى سلم أرض الحجاز، فسهم العين يقطع مسافة طويلة وبعيدة حيث لا تستطيع
الحواس الاخرى بالقيام بها.
والعين أجمل قطعة فنية وصفها البارئ تعالى، وجعلها فتنة للناس، حيث يقول: وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ
عِينٍ (الطور/٢٠). فبالعين الساحرة يمكننا أن ندرک الجمال الساحر، كما جاء في قول الشريف الرضي:

ياظبية البان ترعى فى خمائله ليهنك اليوم أن القلب مرعاك
الماء عندك مبدول لشاربه وليس يرويك ألامدعى الباكي
سهمٌ أصاب وراميه بذى سلم من بالعراق، لقد أبعدت مرماك
وعدت لعينيك عندي ما وفيت به يا قرب ما كذبت عيني عيناك
حكيت لحاضك ما فى الريم من ملح يوم اللقاء فكان الفضل للحاكي
كأن طرفك يوم الجزع يخبرنا بما طوى عنك من أسماء قتلاك
أنت التعيم لقلبي والعذاب له فما أمرك فى قلبي وأحلاك
(الشريف الرضي، محمد بن الطاهر، ج ٣: ١٠٧)

وكذلك يقول بشار بن برد:

أنا والله اشتهى سحر عينيك وأخشى مصارع العشاق
(شيخو، لويس، مصدر سابق، ج ٢: ٢٠)

ومن المعلوم أن بشاراً كان أعمى، فانظر كيف سحرت العيون قلبه.

باء: الأدباء والعيون

البحث عن العيون لدى الشعراء طويل وعريض، يستحق دراسة أكاديمية حتى تستوفى المطلوب وأنما جاء البحث هنا بايجاز، فمنذ أن انفجر عمود الشعر وليومنا هذا خاض الادباء فى العيون أىّ خوض، ولم يتركوا جانباً منه إلا ذكره ووصفه، وتفننوا فى أدبهم بشتى الاساليب والبيان، على مرّ العصور و الأزمان، فبرعوا وأبدعوا فى الجمال والحبّ لما تأثرت عواطفهم ومشاعرهم بالعيون، والبحث يدور على محاور عديدة نذكر منها:

١. شوق العيون

بما أن القلوب تشتاق الى الأحبة حيناً بعد حين، ويزداد هذا الشوق وينقص حسب الظروف والأزمان، فان العيون كذلك تشتاق إلى أحبّتها، فانظر الى براعة عمر بن أبى ربيعة حين يقول:

فعرفن الشوق فى مقلتها وحباب الشوق يُيديه النظر

(المصدر السابق، ج ٢: ١٨٧)

وأراد بالحباب الفقاقيع التى تعلقو الماء. وكذلك قال الصنوبرى فى هذا المجال:

كم ثانيا تُسبى بنكبتها وكم عيون تُصبى بلحظتها

(المصدر السابق، ج ٢: ٢٢)

وأراد ب(تُصبى) اشتياق العيون.

٢. ألوان العيون

كما هو معروف أن للعيون ألواناً مختلفة، فيها آيات السحر مشهودة ومعانى الجمال مقصودة من قبل اصحاب الازواق الأدبية، فقد تباينت أذواقهم فى وصفها، فمنها الدعاء اى السوداء الواسعة التى وصفها القرآن العظيم بالحوار العين، ثم انظر إلى قول الشاعر السلطان النبهانى الذى يرى أن العين الدعاء سيف يقتل العشاق فى هذا البيت:

لقد سللت سيف جفن أدعج على همام أروع متوج

وكذلك يرى أبو نواس هذا المعنى فى هذا البيت:

قالوا: فزد، قلت وفى ال عينين منه دعج

(ديوان ابى نواس: ٤٦)

وكذا يقول بشار:

ودعجاء المحاجر من معدّ كأنّ حديثها ثمر الجنان
(شيخو، لويس، ج٣: ٢٠)

وينظر البحترى الى الجمال الذى يرافق العيون الحور بقوله:

وسواد العيون لو لم يُحجّر بياض، ما كان بالموموق
(الاسكندرى، احمد، ١٩٥١م، ج٣: ١١٠)
ويراد ب(لم يحجّر) اى لم يحط، وبالموموق اى المحبوب. وقال الشاعر المهجرى إيليا أبو
ماضى فى العيون السوداء:

ليت الذى خلق العيون السوداء خلق القلوب الخافقات حديدا
ومنها العين النجلاء التى اشدُّ فتكاً من أفعى حرّة، فإنّها تقتل حين ترمى، قال عمر بن أبى ربيعة:
وأقبلن يمشين الهوينى عشيّة يُتّلتن من يرمين بالحدق النجل
ومنها الشهلاء، والشهلة حمرة فى سوادها، (التعالبي، اسماعيل، بلا: ٩٥)، وقيل سواد الحدقة
يضرب الى الحمرة، قال السرى الرفاء:

فهل كُشهل العيون من كُتب وهو كُزهر النجوم من بُعد
(شيخو، لويس، ج٣: ٢٩٢)
ومنها العين الكحلاء، لم يكن سواد العين وحده يسحر أذواق الشعراء بل تجاوز الى الاجفان
السود من غير إضافة الكحل إليها، كما قال التلعفرى:

حميت شقيق الخدّ بالمقلبة الكحلا وتقلت رُمح القدّ بالطعنة السجلا
هذا من جانب، ويرى بعض الشعراء من جانب آخر، ان العين أحياناً تتكحل بنور الحبيبة كما
يشير الى هذا المعنى عبد الجبارين حمديس:

ولمّا عَشينا من توقّد نورها تخذنا سناه فى نواظرنا كحلا
(الاسكندرى، أحمد، خ ١٦٧: ٣)

ويرى عمر بن أبى ربيعة ان عينه تكحلت بالقذى من ألم الفراق كما هو المشهود فى البيت التالى:
وقد كحلت عينى القذى لفراقكم وعاد لها تهتأنها فهى تسجّم

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج٢: ١٩٣)

ويرى ابن ابى الحديد أنّه يكحل عينه بغبار نعال الحبيب كما هو فى بيته التالى:

قسماً بترب نعاله فمحاجرى أبداً بغير غباره لا تكحلُّ

(الصالح، صالح على، ١٩٧٢: ١٤٩)

وللعين الوان اخرى مثل الزقاء والخضراء و ... ولها أسرار ومعانٍ متفاوتة نعرض عنها صفحاً
خوف الإطالة.

٣. اشكال العيون

منها الناعسة والضاحكة والحزينة، واما الناعسة فهي التي يتميز اصحابها بالهدوء والسكينة كما
يصفها ابن الرومي قائلاً:

وألفت جُنح مغربها شعاعاً مريضاً مثل ألحاظ الكعاب

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج٣: ١٠٢)

والمراد: من جُنح مغربها اي في ظلام الغروب، والكعاب أي الجارية الناهدة، ويقول آخر:

يا ناعس الطرف لا ذقت الهوى أبداً أسهرت مضناك في حفظ الهوى فتم

والعيون الناعسة علامة للدلال و الدلع و ... لقد جمع الشاعر سويد بن ابى كاهل بين صفاء
العين وفتورها وكحلها فقال:

صافى اللون وطرفاً ساجياً أكحل العينين ما فيه قمع

(الخطيب التبريزي، يحيى، ١٨٧٨، ج٢: ٨٧)

واما العيون الضاحكة، فقد نسبها الرب الجليل للوجه حيث يقول: (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ
ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ) (عبس/٣٩)، ويتميز أصحابها بالذكاء والطرافة وأما العيون الحزينة، فهي التي
تترقق الدموع فيها ويمتاز أصحابها بالحكمة وروعة الروح.

٤. تشبيهات العيون

شبه الشعراء العيون بأفضل التشبيهات من سوادها وسعتها، بالغزلان والمها والجوذر، وأخرى
بالترجس وما شابه ذلك، يقول عنترة بن شداد:

وكأنما نظرت بعيني شادن رشاً من الغزلان ليس بتوأم

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج١: ١٥٤)

وفاعل نَظَرَتْ عبله، والشادن ولد الطيب، والرشاً ولد الطيب إذا قوى وركض، وليس بتوأم يعني
أنه فرد ويدل على سمنه وقوته. يقول الشريف الرضى فى الأطباء الواسعة العيون:

السيد خليل باستان ٦١

هيهات يتبعنى الى سلوانه قلباً أصاب به الطباء العين

(الشريف الرضى، محمد، ١٤٠٦ هـ.ق، ج ٢: ٤٧١)

وتارة يرى الحبيبة تنظر اليه بعين الشاة الوحشية حيث يقول:

ترنو إلى بعين مطفلة رعت اللوى ومساقط المزن

(المصدر السابق ج ٢: ٤٧٩)

والمراد بعين مطفلة اى بعين شاة وحشية ذات طفل، فهي واسعة العين كحلاء، واللوى ما التوى من الرمل.

ويرى البارودى من المعاصرين ان العيون هي عيون المها كما جاء فى قوله:

محا البين ما أبقت عيون المها منى فشبث ولم أفض اللبنة من سننى

(محمدي: ١٩)

والبين الفراق، والمها البقرة الوحشية يستحسن منها العيون الواسعة، اللبنة الحاجة. وهذا معن بن أوس يرى العين هي عين الجوذور (ولد البقر الوحشى) فى قوله:

سبتنى بعينى جوذر بخميلة وجيد كجيد الرئم، زينته النظم

(شيخو، مصدر سابق، ج ٢: ٥٦)

والمراد بالخميلة الرملية تنبت الشجر، الجيد الرقبة، والرئم الغزال الابيض اللون. ويرى الصنوبرى ان سعة العيون تشبه النرجس فى قوله:

أجفان كافور خققن باعين من زعفران ناعمات اللمس

مغرورقات فى ترقرق كله ترنو بعين الناظر المتفرس

(المصدر السابق، ج ٣: ٢١٨)

ومغرورقات غارقات بالدمع، ترقرق تاللاً، المتفرس: الذكى.

٥. قتلى العيون

بالغ الشعراء فى وصف العيون وسحرها إلى حدّ الفداء والقتل، وقيل إن أغزل شعر قالته العرب هو قول جرير التالى:

إن العيون التى فى طرفها حورٌ قتلنا ثم لم يحين قتلاننا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهنّ أضعف خلق الله إنسانا

(الهاشمى، أحمد، بلاتا، ج ٢: ١٥٢)

ويعتقد أبو نواس أن العيون سيوف قتالة في هذا البيت:

أراه سوف يقتلني ببعض سيوف مقلته

(ابونواس، الحسن ابن هاني، ١٩٨٠م: ٤١)

ويرى ابن الفارض أن العيون رماة سهام في هذا البيت:

وقد علموا أني قتيل لحاظها فإن لها في كل جارحة نصل

(ابن الفارض، عمر بن أبي الحسن، ١٩٦٢م: ١٣٦)

بل يرى أبو نواس أشد من ذلك حيث جعل لكل عضو في وجه الحبيب نوعاً من السلاح كما

جاء في البيت التالي:

فالسيف مضحكة، والقوس حاجبيه والسهم عيناه، والاهداب أرماع

(ابونواس، الحسن ابن هاني، ١٩٨٠م: ٤٨)

ويذهب عمر ابن أبي ربيعة إلى عدم وجود القصاص في قتلى العيون في هذه الأبيات:

ولها عينان، في طرفيها حورٌ منها وفي الجيد غيد

ولقد أذكر إذ قيل لها ودموعي فوق خدي تطرد

قلت: من أنت؟ فقالت: أنا من شفه الوجد وأبلاه الكمد

نحن أهل الخيف من أهل منى ما لمقتول قتلناه قود

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج ٢: ١٩٤)

ويراد ب(غيد) النعومة في العنق، وشفه الوجد أو هنه الحب، والكمد الحزن الشديد، والقود القصاص.

ويقراً الشريف الرضي عدد القتلى من خلال النظر إلى العيون:

كأن طرفك يوم الجزع يخبرنا من ينظر في عينيك يفهم عدد

(الشريف الرضي، محمد بن الطاهر، ١٤٠٨ هـ، ج ٢: ١٠٧)

ويرى ابن المعتز أن العيون ترشد إلى قتل المحبين:

يا مفرداً في الحسن والشكل من دلّ عينيك على قتلي

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج ٣: ١٦٣)

٦. سحر العيون

يعدّ الشعراء العيون سواحراً قدمن من مدينة السحر، بابل العراق، كما جاء ذلك في قول أبي العتاهية:

السيد خليل باستان ٦٣

كأنّ في فيها وفي طرفها سواحراً أقبلن من بابل

(المصدر السابق، ج ٣: ٣٦)

ويرى أيضاً أنّ العيون الساحرة لها هيبةٌ وعظمةٌ كما جاء في قوله:

تقلّب الحياض المهابة بينهم عيون ظباء في قلوب أسود

(المصدر السابق، ج ٣: ٣٢)

وهكذا يعتقد أبو نواس بسحر العيون في الجفون كما هو واضح في البيت التالي:

بعينه سحر ظاهر في جفونه وفي نشره طيب كقائمة العطر

(أبو نواس، الحسن ابن هاني، ١٩٨٠م: ٦٥)

وفي هذا البيت أيضاً:

قل لذي الطرف الخلوب ولذي الوجه الغضوب

(المصدر السابق: ٢٤)

والمراد من الخلوب الساحر. وهذا السحر يُرى في قول كعب بن زهير في قصيدته البردة المشهورة:

وما سعادُ غداة البين اذ رحلوا إلّا أغنُ غضيض الطرف مكحول

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج ٢: ١١)

ومن سحر العيون أنّها تُسقى الخمر كما يعتقد بشار بن برد:

حوراء إن نظرت إليك سقتك بالعنين خمرا

(المصدر السابق، ج ٣: ٢٠)

لقد أجاد وأكمل وأجمل ابن هاني الاندلسي البيان في سحر العيون، وجمع أطراف الكلام في أجزاءها، وألبسها ثوب الجمال، وأرى أنّ أحداً من الشعراء لم يقل مقالته التي جاءت في الأبيات التالية:

فتكات طرفك أم سيوف أبيض وكئوس خمر، أم مراشف فيك؟

أجلاد مرهفة وفتك محاجر؟ ما انت راحمة ولا أهلوك

عيناك أم مغناك موعدنا وفي وادي الكرى ألقاك أم واديك؟

منعوك من سنة الكرى، وسروا فلو عثروا بطيف طارق ظنوك

حسبوا التكلل في جفونك حلية تالله ما بأكفهم كحلوك

(المصدر السابق، ج ٥: ١٨)

٧. سهر العيون

من سنن الله تعالى القائمة بين الأنام المنام ليلاً، كما قال عز وجل: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا) (الفرقان ٤٧)، ولكن الذي اشتغل به بالحبيب يطير النوم من دماغه، ويظن أن الليل قد طال زمانه، كما يرى امرأ القيس:

ألايتها الليل الطويل الانجلي بصبح وما الإصباح منك بامثل
فيالك من ليل كأن نجومه بأمراس كتان السى صمّ جنبدل

(الزوزني، الحسين بن احمد، ١٩٩٤م: ٥٦)

والمراد بالانجلاء الانكشاف، والأمثل الافضل، والامراس الحبال، والاصم الصلب، والجنبدل الصخرة، وهكذا هو الكلام لدى الشعراء المعاصرين، منهم محمود سامي البارودي الذي يقول:

نفي النوم عن عينيه نفس أبيّة لها بين أطراف الأسنّة مطلبُ

(الهاشمي، أحمد، بلاتا، ج ٢: ٢٧٧)

فالذي باله مشغول بالانتصار في الحرب تسهر عيناه ولا تغفل عن النصر. وهكذا الحبيب فهو في حالة السهر والأرق كما يرى الكميت:

نفي عن عينك الأرق الهجوعاً وهم يمتري منها الدموعاً

(الصالح، صالح على، ١٩٧٢م: ٧٨)

والمراد بالأرق السهاد، والهجوع النوم، فصاحب الشوق ومالك الهم سهران لا يذوق طعم النوم والراحة لحظة. وهكذا يشعر أبو العتاهية بألم السهر قائلاً:

أرقتُ وطار عن عيني النعاسُ كلاهما ساه وساهر

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج ٣: ٣١)

ويرى أبو نواس أن فتور العين لتدل على السهر في بيته التالي:

تفتير عينيك دليل على أنك تشكو سهر البارحة

(المصدر السابق، ج ٣: ٥١)

٨. الحياء والعيون

الحياء صفة حميدة لدى الجاهليين، حيث تمسكوا بها ردحاً من الزمان، كما يقول عنترة الفوارس:

وأغضُّ طرفي ما بدت لي جارتني حتى يُوارى جارتني ما وأها

(المصدر السابق، ج ١: ١٦٥)

فما بالك بالاسلام الذى حث الرجال والنساء على الحياء كما جاء فى القرآن الكريم: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ... (النور/٣٠-٣١). والى هذا المعنى أشار الفرزدق فى قصيدته المعروفة التى مدح بها الامام زين العابدين (ع) حيث قال:

يُغْضَى حِيَاءً وَيُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ فَلَا يُكَلِّمُ الْآحِينَ يَتَسَمُّ

(شيخو، مصدر سابق، ج ٢: ١٢٢)

فهنا إطباقان الاول للحياء الخاص بالامام زين العابدين (ع) والثانى لعيون المشاهدين هيبية وإجلالاً له (ع).

يقول صاحب كتاب الشعر و الشعراء: تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب، ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه كقول القائل: يُغْضَى حِيَاءً ... البيت أعلاه، لم يقل فى الهيبية شئ أحسن منه (ابن قتيبة، قتيبة، ١٩٠٢: ٧)، ويرى ابن قتيبة ايضاً فى قول جرير:

لولا الحياء لعادنى استعبارٌ ولزرت قبرك والحيب يُزار

إنه من جيد شعره وهو فى مراثية أم حرزة امرأته (المصدر السابق: ٣٠٨). قيل ان أهجى بيت مع التصون عن الفحش قول جرير:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج ٢: ١٥٧)

ثم لننظر إلى ابن أبى الحديد لنتراه كيف سطر آيات الجمال مازجاً الخوف بالحياء فى أجمل صورة من البيان حيث يقول:

يصفر وجهى حين أنظر وجهه خوفاً فيدركه الحياء فيخجل

(الصالح، صالح على، ١٩٧٢م: ١٤٩)

وهكذا الأمر بالنسبة للشعراء المعاصرين منهم حافظ ابراهيم يمدح الشيخ محمد عبده قائلاً:

رأيتك والأبصار حولك خُشِعَ فقلت أبو حفص بيرديك أم على

(الهاشمى، أحمد، بلاتا، ج ٢: ٢٥٥)

وكذلك يقول الأديب المشهور أحمد شوقى:

إخلع النعل واخفض الطرف واخشع لا تُحاول من آية الدهر غمضا

(المصدر السابق، ج ٢: ٢٤٤)

٩. القلوب والعيون

قال الامام على(ع): القلب مصحف البصر، (الصالح صبيحي، ١٩٦٧م: ٧٢٦) فما يراه البصر والعيون تسجله القلوب والأفكار، وتُخزنُ الأسرار فيها لوقت الحاجة، بناءً على هذا ما لا تُدرکه العيون يغيب عن القلوب، كما يُشير الى هذا المعنى البيت التالي:

ومن غاب عن العين فقد غاب عن القلوب

(ابو نواس، الحسن ابن هاني، ١٩٨٠م: ٢١)

وبما أنّ القلوب سجلّ الحوادث والتواريخ، فالعبد يطلب من ربّه أن يحفظ عينيه من الخيانة وأن يطهّر قلبه من النفاق كما جاء في هذا الدعاء: اللهمّ طهّر قلبي من النفاق، وعملی من الرياء، ولساني من الكذب، وعيني من الخيانة، فإنّك تعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور(القمي عباس، ١٣٨٥: ٣٩٧). و من جانب آخر احياناً العين والقلب يشتركان أحياناً في حصاد الذنوب ، كما يعترف دعبل الخزاعي في البيت التالي:

لأأخذنا بظلامتي أحداً قلبي وطرفي في دمي اشتراكاً

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج٣: ٧٧)

وأيضاً يرى أبو العتاهية نفس الرؤية حيث يقول:

خانك الطرف الطموح أيها القلب الجموح

(الاسكندري، أحمد، ١٩٥١م، ج٣: ٣٧)

وهكذا يرى أبونواس في قوله:

أن القلوب مع العيون اذا جنت جاءت بليتها على الإجماد

(ابونواس، الحسن ابن هاني، ١٩٨٠م: ٥٥)

وكذلك يقول سويد بن كاهل البشكري:

أرق العين خيال لم يدع من سليمي ففؤادي منتزع

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج٢: ١٧٦)

هذا ويرى بعض الأدباء أنّ القلب يسمع ويرى كما أشار الإمام على(ع) في وصف المتقين حيث يقول: «وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أنّ زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم» (الصالح صبيحي، ١٩٦٧م: ٣٠٤)، فللقلوب آذان تسمع وعيون ترى، وجاء هذا المعنى على لسان بشار بن برد:

فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى
فبالقلب لا بالعين يُبصر ذو الحبّ
فما تُبصرُ العينان في موضع الهوى
ولا تسمع الأذنان إلّا من القلب

(شيخو، لويس، ١٩٩٨، ج ١٩:٣)

فقلوب ذوى الألباب ترى وتسمع وتختار، وهذا هو الحبّ الحقيقي، إذا إنبعث من القلب
لامن العين واللسان، وإلى هذا المعنى أشار أبو نواس قائلًا:

إذا أبصرت عين قلبي
لحينه المتقارب
ضيباً يميل التهابي
عليه من كل جانب

(ابونواس، الحسن بن هاني، ١٩٨٠م: ٢٨)

ويرى ابن الرومي انّ النظرات تعدّ رسائل الى القلوب كما جاء في هذا البيت:
لحظات أجفان الحبيب
رُسل القلوب الى القلوب

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج ١٣٦:٣)

وتلام العين أحياناً دون القلب كما يرى أبو نواس في هذا البيت:

عيني! ألومك لا الو
مُ القلب، لا ذنبٌ لقلبي
أنت التي قد سمته
بليّة و ضناً و كرب
وسقيته من دمك ال
سفاك سكباً بعد سكب

(أبونواس، الحسن بن هاني، ١٩٨٠م: ٢٥)

والى هذه المعاني نجد مفاهيم اخرى ذكرت للعين من قبل الشعراء، وعلى رأسهم المتنبي الذي
يرى ان العيون ملكة القلوب، في كلامه هذا:

مطاعة اللحظ في الألحاظ مالكة
لمقاتتها عظيم المُلْك في المقل

(البرقوقي، عبدالرحمن، بلا تا، ج ١٠٢:٣)

وقيل: بين الحقّ والباطل أربعة أصابع، فما تراه العين حقّ وما تسمعه الأذن باطل،
ويشير المتنبي الى هذا المعنى قائلًا:

خُد ما تراه ودع شيئاً سمعت به
في طلعة البدر ما يُغنيك عن رُحل

(المصدر السابق، ج ٢٠٥:٣)

ويرى الشريف الرضي انّ اليد وان كانت مظهرًا للقوة ولكنها لا تبلغ المنى كالعين، انظر الى
كلامه في هذا البيت:

ويا ربّما، والهوى ضلّة ترى العين ما لا تتال اليد

(الشريف الرضى، محمد بن الطاهر، ١٤٠٨ هـ، ج ١: ٣٩٣)

ويرى المرارين منقذ وآخرون ان الإعجاب يتمّ بواسطة العين كما جاء فى هذا البيت:

راقه منها بياض ناصع يُونسق العين وفرع مسبكر

مسبكر: منبسط مسترسل.

(الخطيب التبريزى، يحيى، ١٩٨٧ م، ج ١: ٤٢٨)

و يرى الصنوبرى أنّه يمكن معرفة المرض من العيون كما فى البيت التالى:

إنّ ورد الخدود أحسن من عين بها صفرة من يرقان

(شيخو، محمد بن الطاهر، ١٤٠٨ هـ، ج ٣: ٢٢٣)

واخيراً يمكن للعين ان ترى الكثير قليلاً كما جاء فى القرآن الكريم: (وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقِيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً) (الانفال/٤٤). وكذلك جاء فى ديوان الحماسة لأبى تمام قوله:

و يصغر فى عيني تلادى إذا اثنت يمينى بادراك الذى كنت طالب

(الأعلم الششمى، ١٩٩٢، ج ١: ١١٣)

ويرى المتنبي هذا الرأى حينما يمدح سيف الدولة قائلاً:

وتعظم فى عين الصغير صغارها وتصغر فى عين العظيم العظام

(البرقوقى، بلاتا، ج ٤: ٩٤)

وفى هذا المضمار يقول الناشئ الصغير:

لم يشهد المسلمون قط رحى حرب الفوا سواه قطب رحى

(الأمينى، عبدالحسين، ١٩٦٧ ج ٤: ٢٤)

وأنت الخليفة يوم انتجاك على الكور حيناً وقد عاينوكا

إذا شاهدوا النصّ قالوا لنا توائى عن الحقّ واستضعفوكا

(الأمينى، المصدر السابق، ج ٤: ٢٥)

١٠. أنواع الرؤيا

الرؤيا أما إيجابية مثل الرمق، واللحظ، واللمح، والرشق، والنظر، والمشاهدة، و... وإما سلبية مثل عمش، وعشو، وحول، وعور، وعمى و... قد تطرق الشعراء اليها فى قصائدهم، منهم دعبل الخزاعى الذى يقول:

ألم تر أنّى من ثلاثين حجة أروحُ وأغدو دائم الحسرات

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج ٣: ٦٩)

فالرؤيا هنا النظر بالعين المجردة، وبهذه الرؤية يتمّ النظر الى المحاسن كما يقول امرؤ القيس:

ورُحنا، يكاد الطرف يقصر دونه متى ما ترقّ العين فيه تسفل

(المصدر السابق: ج ٢: ٥)

حيث يصف محاسن فرسه وقت العشيّ، وإنّ النظر لا يسعه أن يرى محاسن أعالي جسمه، بل يجد المحاسن في أسافله، فلا يمكن حصر النظر في شبيء واحد من محاسنه. وهكذا يشعر بشار برؤية الحسناء في قوله:

يا منظرأ حسناً رأيته من وجهه جاريفة فديته

(المصدر السابق، ج ٣: ٢٢)

وإذا كان الإنسان ذاتية خالصة سيرى الجمال في كلّ شبيء كما يقول أبو نواس:

رأيتُ فيك ظبَاءً لا قرون لها يلعبين منّا بالباب وأرواح

(أبو نواس، الحسن بن هانئ، ١٩٨٠م: ٤٧)

واحياناً يستعمل الشعراء الترائي للتظاهر كما في هذا البيت لبشار:

قامت تراءى إذ رأتنى وحدى كالشمس تحت الزبرج المنقّد

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج ٣: ١٣)

وتأتى كلمة الرؤيا بمعنى الاعتقاد، كما هو مفصّل في علم النحو، فيتعدى إلى مفعولين، فانظر إلى بيت الحماسة التالي:

يرى أن بعد العسر يسراً ولا يرى إذا كان عسراً أنه الدهر لا زب

(الاعلم الشتمري، يونس بن سليمان، ١٩٩٢م، ج ٢: ١١٧)

واستخدم أبو العتاهية الرؤيا بمعنى الاعتقاد في البيت التالي:

ما أرى حبك ألبا بالغاً بى فوق حدّه

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج ٢: ٣٦)

وهكذا قال دعبل الخزاعي في قصيدته التائية المشهورة:

أرى فيهم في غيرهم متقسّماً وأيديهم من فيئهم صفرات

(المصدر السابق، ج ٣: ٦٩)

١١. الزجر بالعين

يقرأ الانسان من خلال النظر الى العيون ما لا يقرأه فى اى مصحف، من الخوف والفرح والحزن والغضب والزجر، كما يقول أبونواس:

وإننى لطرف العين بالعين زاجرٌ فقد كدتُ لا يخفى علىّ ضمير

(المصدر السابق، ج ٣: ٤٩)

واما الغضب فى العيون فيقول عنه الدينورى:

مدمدمٌ لا أراه إلاّ مقطّبَ الوجه ما رآنى

(الاسكندري، أحمد، بلاتا، ج ٢: ١٣)

وهكذا يرى أبو العلاء المعرى فى بيته التالى:

يسرع اللحم فى إحمرار كما تُسرع فى اللحم مقلة الغضبان.

(المصدر السابق، ج ٢: ٧٦)

١٢. النوم والعيون

جعل الله النوم ليلاً راحةً للأبدان وانقطاعاً عن الأعمال طوال النهار، حيث يقول سبحانه: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَسَاءَ وَ النَّوْمَ سُبَاتًا). (الفرقان/٤٧) وللنوم مراتب أوله النعاس ويتلوه الوسن ثم الكرى ثم الاغفاء ثم الرقاد ثم الهجود وأخيراً التسبيخ وهو أشدّ النوم. وما بينها مراتب اخرى. يقول دعبل الخزاعي:

الحمد لله لا صبرٌ ولا جلدٌ ولا عزاءٌ إذا أهل البلى رقدوا

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج ٢: ٧٢)

وعندما يستولى النوم على الانسان تأتبه الاحلام الصادقة و الكاذبة والمزعجة والمريبة كما أ شار الله تعالى اليها، فمن الرؤيا الصادقة قوله عزوجل عن لسان إبراهيم (ع): (يا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى) (الصافات/١٠٢)، فما مضت سويغات حتى تأول هذا الحلم حيث يقول سبحانه: (قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ). (الصافات/١٠٥) ومنها أضغاث أحلام لا يمكن الركون اليها . ومن جهة ثانية كثيراً ما تنزل البلايا والمصائب التى تفتك بالانسان ليلاً وعند النوم خاصة، كما يقول تعالى: (فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَ هُمْ نَائِمُونَ) (القلم/١٩)، و الحديث طويل فى هذا الباب لا تسعه هذه المقالة. ولننظر إلى موقف الشعراء من النوم، فهذا أبو العلاء يتصوره إنساناً هارباً عن الأجفان والأفتدة فى قوله:

هرب النوم عن جفونى فيها هرب الأمن عن فؤاد الجبان

(الاسكندرى، أحمد، بلاتا، ج ١٣: ٦٧)

وصاحب المصيبة يغادر النوم عينيه، فانظر كيف يصوره بشار فيما يلى:

كأن جفونه سُملت بشوك فليس لنومه فيها قرار

جفت عينى عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصار

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج ٢: ٢٣)

ويرى تأبط شراً أن العين لو نامت استيقظ القلب حارساً عليها كما جاء فى قوله:

إذا خاط عينيه كرى النوم لم يزل له كالى من قلب شيحان

(الاعلم الشنتمرى، يوسف بن سليمان، ١٩٩٢م، ج ١: ٢٥٦)

ويقصد نفسه لما نامت عيناه كان فؤاده مستيقظاً حارساً عليها وقت النوم، وهذا هو الذكاء بعينه.

١٣. أجزاء العين

للعين أجزاء متعدّدة ذكرها الشعراء، وإنما نشير هنا الى بعضها التى وقفنا عليها فى هذه العجالة، فمنها الجفن الذى هو غطاء العين، حيث يقول الشيخ محمد عبد المطلب:

سلو عنه عيناً قرّح السهد جفنها يُخطّ عليها فى الظلام ويسطرّ

(الاسكندرى، أحمد، بلاتا، ج ١: ١٠٣)

ومنها المحجر، وهو ما دارت العين فيه، كما فى قول ابن أبى الحديد:

قسماً بترّب نعاله فمحاجرى أبداً بغير غباره لا تكحل

(الصالح، صالح على، ١٩٧٢م: ١٤٩)

ومنها الحُجاج وهو العظم المشرف على العين، كما هو فى قول أبى نواس التالى:

تُقلب طرفاً فى حُجاجى مغارة من الرأس لم يدخل عليه ذرور

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج ٣: ٥١)

ومنها الطُرف، وهى ناحية العين أو حركتها، كما جاء فى قول ولى الدين يكن:

كم يُوحى طرفك لى غزلاً وأنا فى شعري أنشده

(الاسكندرى، أحمد، بلاتا، ج ١: ٩٥)

١٤. مصطلحات العين

إذا اقترنت العين بحرف أو كلمة أصبحت لها معانٍ مختلفة، وهي كثيرة الاستعمال على ألسن الأدباء والشعراء، لقد أحصينا منها ما يلي:

فمنها قرّة العين، فهي كناية عن الفرح والسرور، قال تعالى: (وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قَرَّتْ عَيْنٌ لِي وَ لَكَ) (القصص/٩)، والقرّة أماً مشتقة من القور، أي برد العين عند السرور، أو من القرار واستقرار العين عند السرور، قال أبو نواس:

قرّة عيني، وبرد عيشي بان، وريحاتي وطبي

(أبو نواس، الحسن بن هاني، ١٩٨٠م: ٢٦)

ومنها طرفة العين أي أطباق الجفون، ومنه قول عمر ابن أبي ربيعة:

ليت حظي كطرفة العين منها وكثير منها القليل المهنا

(شيوخ، لويس، ١٩٩٨م، ج ٢: ١٩١)

ومثل قول الحطيئة:

قومٌ يبستُ قريـر العين جارهم إذا لوى بقوى أطناهم طُنبا

(المصدر السابق، ج ٢: ٤٢)

وانظر الى قول عمر بن أبي ربيعة التالي:

فإن تصرميني لا أرى الدهر قرّة لعيني ولا ألقى سروراً ولا سعدا

(المصدر السابق، ج ٢: ١٨٨)

ومنها إنسان العين أي سوادها، كما جاء في قول شمس الدين محمود الكوفي:

إنسان عيني مذ تضاءت داركم ما راقه نظر إلى إنسان

(الاسكندري، أحمد، بلاتا، ج ٢: ١١٢)

وكذلك قول المتنبي التالي:

فجاءت بنا إنسان عين زماته وخلصت بياضاً خلفها وما قيا

(البرقوقي، عبدالرحمن، ج ٢: ٤٢٤)

ومنها رأى العين أي اليقين، كما أشار الله سبحانه قائلاً: (يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ) (آل

عمران/١٣)، وكما قال أبو تمام في البيت التالي:

لما رأى الحرب رأى العين توفلس والحرب مشتقة المعنى من الحرب

(شيوخ، لويس، ١٩٩٨م، ج ٣: ٨٨)

ومنها ما جاء مجروراً بالباء، كقول الحارث بن حلزة اليشكري التالي:

وبعينيكَ أوقدت هندُ الننا ر أخيراً، نلوى بها العلياء

(الزوزنى، الحسين بن احمد، ١٩٩٤م: ١٧٣)

يعنى بمرأى منك. هذا ولقد تفنن أبونواس فى اشعاره بانواع المصطلحات، فقد استعمل مضرّ اللحظ لناعس الطرف فى قوله:

أنا الفداء لظببى مضرّ اللحظ رطب

(أبو نواس، الحسن بن هانى، ١٩٨٠م: ٢٥)

واستعمل ابن الرومى العين واللحظ مجازاً فى قوله:

قد رمت ألاحظه كبدى سهام للردى صيب

(ديوان ابن الرومى: ٣٢)

وله ايضاً:

ورمى طرفك المكحل بالسهح رفؤادى فصار رهناً لديك

(المصدر السابق: ١٥)

واما مصطلح بياض العين فهو كناية عن العمى، كما جاء فى القرآن الكريم: (وَإَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) (يوسف/٨٤)، و كما يقول سويد بن أبى كاهل اليشكري:

كهمت عيناه حتى ابيضتاً فهو يلحى نفسه لَمَّا نزع

(شبخو، لويس، ١٩٩٨م، ج ٢: ١٧٩)

والمراد من كمه اى الذى يولد أعمى، ويلحى اى يلوم، ونزع اى كف.

واما مصطلح أولو الابصار فاستخدمه القرآن العظيم لذوى العقول كما جاء فى قوله تعالى: (يَقْلَبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ) (النور/٤٤)، فأصحاب العقول يدركون التغيرات المحيطة بهم من كل جانب، ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه. قال الامام على (ع): فاتى فقأت عين الفتنة (خ/٩٣)، اى قلعتها، هذا وان للبحث صلة ليس هذا مقامها.

١٥. عمى العيون

قال تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ) (الانعام/٥٠)، فمن كبرى نعم الله على البشر الرؤية بالعين، ومن يعمل على بصيرة فقد أفاد نفسه، ومن تظاهر بالعمى فقد أضر بنفسه، والذين يعرضون

عن آيات ربهم في الحياة الدنيا هم أشدُّ عمى يوم القيامة. هذا ويرى المتنبي أن أدبه جعل الاعمى بصيراً والأصم سميعاً كما جاء في البيت التالي:

أنا الذي نظر الأعمى الى أدبى وأسمعت كلماتي من به صممُ

(البرقوقي، عبدالرحمن، بلاتا، ج ٣: ٨٣)

وقيل إنَّ المعرّي كان إذا قرأ هذا البيت أو سمعه يقول: أنا الاعمى. ويرى بشار أن جلاء العيون أمّا بالعلم أو بالسيف كما جاء في قصيدتين مختلفتين:

اولاك الالى شقّوا العمى عن العين حتى أبصر الحقّ

وما قرع الاقوام مثل مشيّع أريب ولا جلى العمى مثل عالم

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج ٣: ١٣ و١٧)

وبهذه الرؤية ترى ليلي الاخيلية في هذا البيت:

بضرب يُبصرُ العُميان منه وتعشى دونه الحدقُ البصارُ

(الاعلم الشنتمري، يوسف بن سليمان، ١٩٩٢م، ج ١: ٢٢٨)

ويرى بشار بن برد إنَّ البصر إذا عمى في الحبِّ فإنَّ الأذن تبدأ بالعمل نيابة عنه:

فما تبصرُ العينان في موضع الهوى ولا تسمع الاذنان إلّا من القلب

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج ٣: ١٩)

١٦. العين والتجسس

العين تكون جاسوساً مجازاً وعلاقتها الجزئية، وهي أمّا ان تكون جاسوساً على القلب فهي أشدّ وطأً من غيرها، كما يُشير البحترى الى ذلك:

إذا العين راحت وهي عينٌ على الجوى فليس بسرّاً تُسرُّ الاضالع

(الجارم، على، ١٩٦٤م: ٦٩)

وهكذا يرى الشريف الرضى في قوله:

لا أتبعُ القلب الى غيركم عيني لكم عينٌ على قلبي

(الشريف الرضى، محمد بن الطاهر، ١٤٠٨ هـ.ق، ج ١: ١٨)

وأما إن تكون جاسوساً بالمعنى العام كما قال الامام على (ع): ثم تفقد أعمالهم وبعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم (صبحى الصالح، ٤٣٥). وقد جمع أبو نواس المعنيين في قصيدتين مختلفتين:

إن كان يمنعك الزيارة أعينُ فادخل علىّ بعلّة العوَاد
كأنّ طرفى عين علىّ لهم فكلّ طيىّ لىدى منشور
(أبو نواس، الحسن بن هانى، ١٩٨٠م: ٥٥ و٧٨)

ويرى أبو العتاهية أنّ الجاسوس لو كان من النمامين فهو أشدُّ مرارة على الانسان:
من جعل النمام عيناً هلكا مبلغك الشرّ كباغيه لكا
(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج ٣: ٤٢)

والحديث فى هذا المجال ذوسعة ويستطيه المخاطب، ولكن المجال لا يسع لذلك.

١٧. العين والحسد

من أشدّ الأمراض النفسية التى يبتلى بها الإنسان هو الحسد، ونستجير بالله من شرّ الحساد وفتنة العيون والأبصار، ومن حسد الكفار الذين يقول عنهم العزيز الجبار: (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ) (البقرة/١٠٩). وقال الإمام على (ع) فى هذا المضمار: العين حق، والرقى حق، والسحر حق، والقال حق، والظيرة ليست بحق، والعدوى ليست بحق، (الصالح، صبحى، ١٩٦٧م، ٥٤٦). فلا شك اذا العين حسدت أصابت هدفها، ودمرت اليباس والاخضر، وأفنت كل شىء، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا.

هذا وانّ الادباء خاضوا فى هذا الموضوع وبالغوا فيه، كما نرى ذلك فى قول أبى فراس:

رمتنى عيون الناس حتى أظنّها ستحسدنى فى الحاسدين الكواكب
(الاسكندرى، أحمد، بلاتا، ج ٢: ٩٧)

فانّ ابا فراس يرى حتى الكواكب على ما بها من علو شأن ومقام تحسد الانسان. وكذلك قول مهبّار:
كل شىء حسن، حاشاك - فالعين تُصبيه

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج ٣: ٢٠٨)

واعلم أنّ الحسد يزيل النعم، فانظر الى قول أبى عبد الله محمد القزاز القيروانى حيث يقول:

إذا أمنت قلوب الناس خافت عليك خفىّ الحافظ العيون
(الاسكندرى، أحمد، بلاتا، ج ٢: ١٦)

وهكذا يعتقد الطرمّاح حيث يقول:

إذا ما رآنى قطع الطرف دونه ودونى فعل العارف المتجاهل
(الاعلم الشنتمرى، يوسف بن سليمان، ١٩٧٢م، ج ١: ٢٨٧)

أى قد عرفنى بشهرة نسبي وفضلى إلا أنه يتجاهل فى معرفتى حسداً لى ورغبة فى إخفاء مكانى على حسبى. و شبةً أبونواس حسد العين بالعقرب فى قوله:

يا من فى عينيه عقرب فكل من مر بها تضرب

(أبو نواس، الحسن بن هانى، ١٩٨٠م: ٢٢)

ويرى أبو العتاهية علاجاً من الحسد ان تجعل نقطة فى وجه الحبيب كما جاء فى البيت التالى:

قد تقطت فى وجهها نقطة مخافة العين من الكحل

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج ٣: ٣٣)

١٨. العين إنسان كامل

لو نظرنا الى ما قالته الشعراء فى العيون لوجدناهم يصفونها باكمل انسان، فالعيون تارة تعشق واخرى ترمى سهماً و تتكلم و تغضب و تختارو ... فجعلوا أدق الاوصاف لها وكأنها الانسان الكامل، والان لننظر الى هذه المعانى بشيى من الدقة. فهذا السرى الرفاء يرى ان العين تعشق كما جاء فى هذا البيت:

عشقت محاسنه العيون فلو رنت أبداً إليه لما قضت أوطارها

(المصدر السابق، ج ٣: ٢٤٩)

ويرى المرار بن المنقذ أن العين تغضب لما يقول:

حينق قد وقدت عيناه لى مثلما وقّد عينيه النمر

(الخطيب التبريزى، يحيى بن على، ١٩٨٧م، ج ٢: ٤٢١)

والمراد من وقدت عيناه لى اى التهبت على غيظاً و غضباً.

والعين أحياناً تتكلم كما يصورها أبونواس فى هذا البيت:

دموعى مزجت كاسى وما أظهرت وسواسى

ولكن نطقست عينى فنمت عن هوى القاسى

(أبو نواس، الحسن بن هانى، ١٩٨٠م: ٩٢)

وهكذا يرى الشريف الرضى فى قوله:

حكّت لحاظك ما فى الرئم من ملح يوم اللقاء فكان الفضل للحاكي

(الشريف الرضى، محمد بن الطاهر، ١٤٠٨ هـ، ج ٢: ١٠٧)

وأحياناً أخرى تختار العين في وصف الأشياء كما يرى محي الدين بنى قرناص الحموى:

وربّ نهر له عيون تحارُ فى وصفه العيون

(الاسكندرى، أحمد، بلاتا، ج: ٢، ١٣)

والعين تعتبر وريثة الحزن كما يصفها الشريف الرضى فى أبياته التالية:

يا رسولَ الله لو عاينتهم وهم ما بين قتلى وسبا

من رميض يمنع الظلّ ومن عاطش يُسقى أنايب القنا

لرأت عيناك منهم منظرا للحنى شجواً وللعين قذى

(الشريف الرضى، محمد بن الطاهر، ١٤٠٨ هـ.ق، ج: ١، ٤٤)

ويرى أمير المؤمنين الإمام على (ع) أنّ العين تكذب كما جاء فى قوله: «ليست الرؤية كالمعاينة مع الابصار، فقد تكذب العيون أهلها، ولا يغشُ العقل من استنصحه» (صبحى صالح: ٥٢٥). ويرى احمد شوقى أنّ للعيون ألحان كما للطيور ألحان:

والطير تصدح من خلف العيون بها وللعيون كما للطير ألحان

(الاسكندرى، أحمد، بلاتا، ج: ١، ١١٢)

ومما يراه أبو نواس أنّ العين تصطاد كما يقتنص الصياد الفريسة:

فرمى بالطرف نحوى وهو بالطرف يصيد

(أبو نواس، الحسن بن هانى، ١٩٨٠م: ٥٧)

وكذلك يعتقد أنّ العين تطمح كما فى قوله:

قال له والعين طمّاحة يلهو به، والصبر مغلوب

(المصدر السابق: ١٩)

ويرى ولىّ الدين يكن أنّ العين ترصد الامور فى بيته التالى:

خلّان هُما شمساً فلك طرفى مع طرفك يرصده

(الاسكندرى، أحمد، بلاتا، ج: ١، ٩٥)

واخيراً تنحسر العين كما تنحسر النفس، كما جاء فى قول السرى الرفاء:

فالعين تحسر أن رأت أشواقها والنفس تنعم ان بلت أخبارها

(شيخو، لويس، ١٩٩٨م، ج ٣، ٢٩)

وهكذا الظنّ عند محمود سامى البارودى الذى يقول:

ولمّا وقفنا للوداع و اسبلت
مدامنا فوق الترائب كالمزن
فكم مهجى من زفرة الوجد فى
وكم مقلة من غرزة الدمع فى

(الهاشمى، أحمد، بلاتا، ج ٢: ٢٨٩)

ومن المعلوم أنّ الموضوع لا يقف عند هذا الحدّ، بل هو ممتدّ بامتداد البصر، يحتاج الى دراسة معمّقة أكثر والوقوف على جوانب أهمّ وأعظم من هذا الذى قمنا به، وهذه المبادرة ما هي إلّا إشعال نار الحبّ والتحقيق فى قلوب أصحاب الذوق والفنّ السليم. وفى النهاية أرجو القبول من أصحاب العقول وأهل الفنّ والأدب.

الخاتمة

إنّ ما توصلنا إليه فى هذا البحث هو أنّ العين هي الدليل للحياة المتكاملة، إذا تمّ إستعمالها بصورة صحيحة، فهي من أكبر مظاهر الجمال، وبها نتعرّف على الجمال، عشقتها الاذواق السليمة من ذوى الشعور المرهفة، ومن جهة اخرى جعل الله سبحانه الحور العين ثمناً لأصحاب اليقين من المؤمنين الذين بذلوا مهجهم للدين وعملوا الصالحات. والبحث ذو سعة، يستحقّ التحقيق من قبل ارباب العلوم وأصحاب الفنون. وما توفيقى إلّا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب.

المصادر

القرآن الكريم.

الاسكندري، أحمد، ١٩٥١م، المنتخب من أدب العرب، القاهرة، المطبعة الأميرية.

الامينى، عبد الحسين، ١٩٦٧م، الغدير، ج ٤، بيروت، دار الكتاب العربي.

ابن الفارض، عمر بن أبى الحسن، ١٩٦٢م، ديوانه، بيروت، دار صادر.

ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، ١٩٠٢م، الشعر والشعراء، بيروت، دار صادر.

أبونواس، الحسن بن هانى، ١٩٨٠م، ديوانه تحقيق فوزى عطوى، بيروت، دار صعب.

الاعلم الشنتمرى، يوسف بن سليمان، ١٩٩٢م، شرح حماسة ابى تمام، تحقيق على المفضل حمودان، بيروت، دار الفكر.

البرقوقى، عبد الرحمن، بلاتا، شرح ديوان المتنبي، بيروت، دار الكتاب العربي.

التعالبي، اسماعيل، بلاتا، فقه اللغة، مكة المكرمة، دار الباز.

الجزام، على ومصطفى امين، ١٩٦٩م، البلاغة الواضحة، مصر، دار المعارف.

الخطيب التبريزى، يحيى بن على، ١٩٨٧م، شرح اختيارات المفضل، بيروت، دار الكتب العلمية.

الدامغانى، الحسين بن محمد، ١٩٧٠م، قاموس القرآن، تحقيق عبدالعزى سيدالاهل، بيروت، دارالعلم للملبيين.

الزوزنى، الحسين بن احمد، ١٩٩٤م، شرح المعانيق السبع، سوريا، دار الإرشاد.

- الشريف الرضى، محمد بن الطاهر، ١٤٠٦ هـ.ق، ديوان، ايران، وزارة الإرشاد الإسلامى.
شيخو، لويس، ١٩٩٨م، المجانى الحديثه، تحقيق فؤاد البستاني، قم، انتشارات ذوى القربى.
الصالح، صبحى، ١٩٦٧م، نهج البلاغه، بيروت، بلاتا.
الصالح، صالح على، ١٩٧٢م، الروضة المختارة، بيروت، مؤسسة الاعلمى.
الطبرسى، الفضل بن الحسن، ١٣٧٩ هـ.ق، مجمع البيان، بيروت، دار احياء التراث العربى.
الطريحي، فخر الدين، بلاتا، مجمع البحرين، طهران، كتابفروشى مصطفى.
عبد الباقي محمدفؤاد، ١٣٦٤ هـ.ق، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، القاهرة، دارالكتب المصرية.
قمى، عباس، ١٣٨٥ش، مفاتيح الجنان، تهران، بيام عدالت.
محمدي، محمد، ١٩٧٣م، درس اللغة والأدب، طهران، منشورات جامعة طهران.
المصطفوى، السيد جواد، ١٣٩٥ هـ.ق، الكاشف، طهران، دار الكتب الاسلامية.
الهاشمى، احمد، بلاتا، جواهر الأدب، بيروت، مؤسسة المعارف.

